الفصل الأول

منافذ العنف

هذا العنف الشيطاني الذي يُرعب العالم اليوم، يطل من كل الأبواب، أبواب السلاح المدمر، وأبواب الأدوية الفاسدة، والأغذية المغشوشة، والاحتيال، والإدمان، والإباحية، والتكفير، والتعصب بكل أشكاله...وغيرها من المنافذ؛ ليُترك الإنسان أسير الخوف والقلق. "فالتقرير العالمي الأول عن العنف (والمنشور في 3 أكتوبر عام 2002) كان يحمل أنباءً لا تسر- إذ يعاني ما يزيد عن 1،6 مليون إنسان من موت عنيف سنوياً، وبمعدل وسطي يُقتل ما يزيد عن 1،400 إنسان يومياً؛ ويقتل 35 إنسان كل ساعة تقريباً جراء نزاع مسلح." [1] وهذه النزاعات لم تتوقف وقد ارتفعت خلال السنوات الماضية لتحصد المزيد من الأبرياء. والعنف يطال كل المجموعات البشرية في بيئاتهم المختلفة، والجرائم الفردية موجودة في أكثر المجتمعات تطوراً؛ وإذا قمنا بالبحث عن حقيقة الأمر وعن الأماكن التي ترتفع فيها معدلات الجريمة، نجد أن أرقى الدول وأكثرها حديثاً عن سيادة القانون، وعن الدعوة لرفع الظلم، تتصدر القائمة من حيث الجرائم التي ترتكب على أراضيها. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً - باعتبارها من أكثر الدول المتحدثة باسم الديمقراطية في العالم - بلغ معدل جرائم القتل فيها ما نسبته 4,8 ٪ عام 2010، أو 14478 لكل 100 من السكان، وهذا المعدل أعلى من المتوسط؛ وماذا تعني هذه

[1] العنف والديمقراطية، ص 12.

obeikan.com

الأرقام في دولة قوية وتملك قدرات مادية تمكنها الحد من الجرائم! بدل تركيز كل قدراتها لمكافحة الجرائم في دول أخرى؛ وهذه الدولة تتصدر القائمة في خوض الحروب والهيمنة على دول ذات استقلال وسيادة، مما يزيد من حدة النزاعات والتطرف بين الجماعات؛ وهذا التدخل يُعتبر مخالفة للقوانين الدولية.

ويحتوي الإعلان العالمي لعام 1948 بالإضافة إلى مجموعة من الحقوق الفردية على حقوق اجتماعية مثل الحق في الأمن، والصحة، والتعليم، والغذاء، فأين هي هذه الحقوق، والحرمان في بعض الأماكن لا يزال واضحاً!

وماذا نقول حين نعلم أن الإنفاق على الحروب وعلى السلاح في العالم اليوم، يفوق بكثير الإنفاق على المجاعات، وأن المساعدات انخفضت معدلاتها بنسبة 45٪ منذ 1990. وتتضح مسألة العنف بشكل أكثر وضوحاً أثناء الحروب فهذه الدول المتحضرة تصرف على آلات الدمار أكثر مما تصرف على الغذاء أو الدواء، وتنفق على البحوث العسكرية ضعف ما تنفقه على البحوث العلمية. ودول العالم الثالث تخصص أقل من 10٪ من ميزانيتها للزراعة بينما تُضاعف ميزانية الإنفاق العسكري. " فبين عام 1963 وعام 1969 بلغت تكاليف سباق التسلح النووي بين الدول الكبرى، خمسمائة مليار دولار، عدا عن تكاليف الاكتشافات الفضائية. وقس على ذلك نسبة التكاليف اليوم. ولقد أصبح عند الدولتين العظمتين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي قوة عسكرية نووية بإمكانها قتل مائتي مليون إنسان خلال الساعتين الأوليين لاندلاع الحرب بينهما... وكل ما يجري اليوم من مفاوضات حول نزع السلاح النووي وتحديده لا يتجاوز حد مطالبة كل جهة بأن تخفض قوة التفجير الذري بشكل ينخفض فيه عدد ملايين القتلى إلى جهة معقولة." [2] فهذه المفاوضات

[2] الإرهاب السياسي ص 168.

obeikan.com

ماذا تعني! فقط تخفيف عدد القتلى؟ وفي أي أماكن من العالم يسمح بالقيام بهذه المصائب! ولعل النظرية **المالتوسية** القائلة بأن الكوارث والحروب هي نعمة للحد من الزيادة المفرطة في عدد سكان العالم، هي النظرية المفضلة عند أصحاب النزعة الرأسمالية الأنانية! ولا يتم تفريغ العالم من سكانه إلا عن طريق إغداق السلاح والسموم على الجماعات التي يراد تصفيتها وتقويض حضارتها ووضع اليد على مدخراتها ومواردها.

والحقيقة الكامنة وراء كل ذلك أن هناك مخلوقات بشرية لا تحمل أي سمة من سمات الإنسانية، ولا تعرف الحق، تتخفى خلف هذه الشعارات الملفتة عن التقدم والمساواة، لتتهم بعض الشعوب الفقيرة والمستضعفة بالعنف والجهل والغباء دون غيرها، لتنفيذ سياساتها الاستعمارية. جميلة هي الديمقراطية، ولكن إذا تحققت بالفعل لا بالشعارات، وما هذه الديمقراطية المزعومة إلا الوجه الآخر للديكتاتورية. وإذا كانت هذه الحضارة المبهرة لن تؤمن رفاهية البشر ولن تحقق الأمان والعدالة، ولن تقضي على مخاطر الأمراض، تصبح الحضارة هذه وبالاً وعاراً على البشر. وما قيمة هذه الحضارة التي تجعل العلاقات الإنسانية خاضعة لإرادة الشخص الأقوى على صعيد المال والسلاح، لا على صعيد الفكر والخُلق. فالكارثة الحقيقية التي تحل بالعالم اليوم، تتمثل بتسليم مراكز القرار لأشخاص تستثار دوافعهم بسرعة، أو لأشخاص لم يحتكموا يوماً للمنطق والتبصر بعواقب الأمور. وهل يجوز ترك المبادرات وأخذ القرارات لأشخاص قد تاهوا عن معرفة الحقيقة، أو غرقوا في دوامة العبث والإدمان! وما قيمة هذه الحضارة التي تملك القدرة على تدمير العالم وكل التراث الماضي والحاضر بلحظات عن طريق الإشعاع؛ هذا هو الواقع الذي لا يترك للعقلاء مجالاً للتغاضي عن ما يجري! ولكن أي فكر وأي عقل سيتمكن من ردع هذا المد الهائل من الجنون.

أصل العنف

هذه المسألة عن أصل العنف ومسببات العنف نوقشت مراراً وتكراراً منذ بداية التاريخ، فالشر لم يكن من طبيعة **آدم** - الإنسان الأول- وخروج آدم من الجنة كان بسبب استماعه لصوت إبليس الذي حضه على مخالفة وصية **الرب**، وهذه المخالفة لتعاليم الرب أوقعت آدم في الخطيئة، وبسبب مخالفة المخلوق لتعاليم الخالق، وبسبب الخطيئة حلت اللعنة على الأرض وسقط الإنسان في جهنم الشر. وكانت أول وأبشع جريمة، جريمة قتل **قابيل** لأخيه **هابيل** بسبب الغيرة والحسد؛ فحينها نزلت لعنة **الله** على قابيل، وكُتب على الإنسان الموت. وبعدها كثر الشر بين البشر، وبما أن الشر لم يكن ما أراده الرب من خلق الإنسان: **(فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض.)**"(سفر التكوين- الإصحاح السادس). وكان الطوفان كعقاب من **الله** على فساد البشر.

جميع البشر هم من طبيعة آدمية واحدة، إلا أن الطبيعة والمذاهب وأنماط الحياة فرقتهم، ولكنها لم تغير تكوينهم الجسدي والنفسي، فما زالت همومهم مشتركة.

ومنذ بداية التاريخ اجتمعت كل المذاهب في البحث عن أصل الشر، الهندية والمانوية والبوذية والزردشتية وصولاً إلى الأديان الابراهيمية اليهودية والمسيحية والإسلام. وتوحدت النظرة إلى الشر، فأصل الخير بالنسبة للجميع هو **الله**، وأصل الشر هو الإرادة الحرة أي إرادة الإنسان فقط؛ وهذا العالم هو مسرح للصراع بين الخير والشر، وبين الظلام والنور، فالحكيم يختار الخير، والأحمق يختار الشر؛ ولكن كل الرسالات السماوية تقول أن ثمة حساباً بعد الموت لمن يختار الشر.

هيغل يعتبر أن معرفة الإنسان المسبقة لإمكان الموت تجعله مستعداً للمجازفة بحياته، وتضعه في حالة صراع مع الآخر الذي يهدد وجوده، فالعنف ينبع من الخوف، ومن الكره، ومن الرغبة في السيطرة على الآخر، ومن كل ما يهدد وجود الإنسان أو يعرضه للخطر. " أما بالنسبة **لفروم** فغريزة الموت هي الإمكانية الثانوية التي تشكل الوجه المنحرف لغريزة الحياة. إذ أنها تنشأ عبر الإخفاق في حب الحياة. وفي هذا السياق يذهب فروم إلى أن هناك اتجاهين داخل النفس الإنسانية: اتجاه يناهض كل ما هو حي وينجذب نحو الموت ويميل إلى القتل وعادة القوة والسادية، ويسميه النيكروفيلي Nicrophilia والشخص النيكروفيلي من وجهة نظر فروم يميل إلى كل ما هو ميت أو عفن، ويعشق كل ما يتصل بالموت والفناء والمرض والقتل والدمار، وينجذب نحو الظلام والليل والأماكن المقفرة، وهو شخص سادي يقدس القوة، ويكره الضعف ويتلذذ بعذاب الآخرين. ويمكن اعتبار هتلر مثالاً نموذجاً لهذا النمط الكاره للحياة، فقد كان مفتوناً بالدمار، عاشقاً لرائحة الموت، تسحره مشاهد التعذيب والقتل." [3]

وإذا كان هناك من يدعي بأن العنف فطري عند الإنسان، وبأن الناس بطبعهم أشرار، فهذا الادعاء لم يتم تثبيته بالبراهين الصحيحة، فمعظم الناس يصيبهم الهلع من الأفعال العدوانية والعنيفة، ومعظمهم يستنكر ويدين الجرائم والأعمال المنافية للأخلاق. فالعيوب التي تمس الأكثرية من الناس تعود إلى ظروف معيشتهم، فينبغي عدم الاستخفاف بمخاطر التسلط والإذلال والتشرد، فهذا الخوف على المصير وهذه الرغبات المكبوتة يمكن أن تتسبب بأحداث عنف جماعية، أو جرائم فردية.

---

[3] مجلة عالم الفكر، المجلد36، ص 95.

وكل الدراسات تتشابه من حيث التأكيد على أن العنف هو من منبع اجتماعي. والميل إلى العدوان والطباع الموروثة تتشكل بحسب المعطيات الخاصة بكل بيئة، فالعنف في الإجمال مكتسب، وخاضع لمسببات تقع خارج إرادة الأشخاص. بدليل أن المادة الأولى من الشرعة العالمية لحقوق الإنسان تقول: " **كل بني البشر يولدون أحراراً أو متساوين، ونحن لا يمكننا التطلع إلى علم الوراثة لمساعدتنا في شرح العنف والظلم. إن العنف ليس مولوداً، إنه مصنوع".**

تعريف العنف

العنف يعني الشدة، وهو ضد الرفق، وعكس الهدوء؛ ويعني كل الأعمال التي تتمثل باستعمال القوة. ونتيجته إنزال أذى بأشخاص أو ممتلكات، وهو ذو طابع فردي أو جماعي.

"يقدم روبرت براون Robert M Brown تعريفاً مطولاً للعنف بوصفه انتهاكاً للشخصية بمعنى أنه تعد على الآخر أو إنكاره أو تجاهله مادياً أو غير ذلك، فأي سلوك شخصي ومؤسساتي يتسم بطابع تدميري مادي واضح ضد آخر يُعد عملاً عنيفاً". براون يقترح تحولاً في التفكير بخصوص العنف، من العنف الذي ينبع من الفرد (الجسد والروح) إلى العنف الناتج عن علاقة مؤذية (الظلم) بين الأشخاص. يفيد هذا التحول في الإفصاح عن التعقيد الاجتماعي للسلوك العنيف وفي علاجه. لكنه لا يُعالج مسألة ممارسة الشخص للظلم، وهذه مسألة حاولت ثنائية الجسد- الروح معالجتها، فلا يكفي أن نضع جانباً نقاش العنف بوصفه داخلياً في ثنائية الجسد- الروح ومن ثم نتحول إلى مناقشته بوصفه خارجياً وتركيبيا. إن الأفراد جزء من إسهام التركيب ويسهمون فيه. يصبح مشروع براون غير مكتمل من دون انتروبولوجيا قصدية

openeikan.com

معدلة تحل محل ثنائية الجسد- الروح. ومن دون فهم المرء لحافز القيام بالظلم." [4]

وليس لمفهوم العنف معنى موحد بين الشعوب، فما يمكن أن يُعتبر جريمة عند بعض الجماعات قد لا يكون كذلك في مفهوم جماعات أخرى. "ويختلف الباحثون في تكييف طبيعة أهداف العنف، فيرى البعض أن العنف عمل غير شرعي، ولذلك هو ظاهرة سيئة وغير مرغوب فيها، ولا يقرها الوعي الجماعي؛ بينما يرى آخرون أن العنف وسيلة شرعية لتحقيق أهداف شرعية. فقد لا يوجد طريق سوى العنف للتخلص من أوضاع ظالمة وبائدة ومختلة؛ على سبيل المثال حق الشعوب أن تستخدم العنف لتحقيق استقلالها، أو للتخلص من الهيمنة الأستعمارية." [5]

وهناك فرق كبير بين العنف الناتج عن ردود الفعل الغاضبة وبين الجريمة المدبرة، فردود الفعل الغاضبة تزول عند زوال أسبابها، أما الجريمة المدبرة فهي ناتجة عن انحراف وبغض تدميري وانتهاك للقيم، وتمثل تهديداً. ولهذا اختلف العلماء في تحديد المقصود بالجريمة؛ "فذهبت المدرسة التقليدية إلى تعريف الجريمة بأنها الفعل أو الامتناع عن الفعل الذي يجرمه المشرع بنص من نصوص قانون العقوبات ويقرر له جزاءً جنائياً". وقد انتُقد هذا التعريف لأنه مفرط في الشكلية، فالفعل وفقاً لهذا الرأي لا يكون جريمة إلا إذا اعتبره المشرع كذلك. بينما أن المشرع في الواقع لا يتدخل بتقرير العقاب على ارتكاب فعل معين إلا لأنه في نظره يكون جريمة. وبعبارة أخرى فأن الوجود المادي للجريمة يسبق من الناحية المنطقية وجودها القانوني. وتجنباً لهذا النقد رأى بعض الفقهاء – وعلى رأسهم فقهاء المدرسة الوضعية تعريف الجريمة بأنها

[4] الأنماط الثقافية للعنف، ص 37.

[5] ظاهرة العنف السياسي، ص 51.

openkan.com

كل فعل أو امتناع يتعارض مع القيم الأخلاقية السائدة في المجتمع. وقد انتُقد هذا الرأي بدوره استناداً إلى عدم وجود تطابق بين القانون الجنائي والأخلاق، فإذا كانت هناك دائرة مشتركة بينهما حيث يُجرم القانون أفعالاً تُعد مخالفة لقيم أخلاقية سائدة، إلا أنه أحياناً توجد أفعال أخرى تتعارض مع هذه القيم ولا يقرر لها القانون عقاباً، فهذا الرأي - كما قيل- لا يضع تعريفاً للجريمة وإنما يضع تعريفاً لما يجب أن يكون جريمة." [6]

والعنف يمكن أن يكون جماعياً أو فردياً. وجسدياً أو نفسياً، فالعنف الجسدي يظهر بوضوح على الجسد من خلال الضرب أو الخنق أو الحرق، وغيرها من العلامات الواضحة. أما العنف النفسي فلا يقل خطورة عن العنف الجسدي، فهو يسبب الأذى من خلال التخويف والاستغلال والقمع، مما يؤثر سلباً على الوظائف السلوكية للإنسان وتكون نتائجه مدمرة فيصبح المتضرر عصبي المزاج عدواني غير قادر على التحكم بردود أفعاله، وغير قادر على التركيز في معظم الأحيان.

فموضوع العنف يتطلب دراسة شاملة لا تقتصر على تصوير طبيعة الجريمة، أو وصف سلوك المجرم وطريقة الإيقاع بالضحية، ولا يكفي تحديد عقوبة الجاني فقط دون معرفة العوامل المسببة لدافع القيام بالجريمة، فالعنف دوامة لا يمكن محاصرتها من جهة واحدة.

ويقسم العنف إلى قسمين: **العنف الفردي**، وهو حالات العنف التي يقوم بها أفراد لدوافع فردية. **والعنف الجماعي** وهو العنف الناتج عن الحروب والثورات وهو موجود في يومنا، وفي مختلف الحضارات؛ ولكن العنف اليوم لحق بتطور التقنيات وبات أشد فتكاً مما كان.

[6] مبادئ علم الإجرام وعلم العقاب، ص، 14.

آليات العنف

"تشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن آليات العنف الفزيولوجية قلما تختلف باختلاف الأفراد والثقافات، وقد رأى أنطوني ستور في كتابه العدوان الإنساني أن ليس ما يشبه هراً أو إنساناً في حالة الغضب مثل هر أو إنسان آخر في حالة الغضب" [7] " إن رغبة العنف متى استيقظت أحدثت في صاحبها تغييرات جسدية تعده للقتال. ومع أن هذا الاستعداد للعنف محدود الأجل، فلا يصح أن نرى فيه مجرد ارتكاس (REFLEXS) تتوقف مفاعيله بتوقف عمل المحفز لأن تهدئة رغبة العنف حسبما يشير ستورز هي أصعب من إثارتها بكثير خصوصاً في ظروف العيش العادية داخل المجتمع. وغالباً ما يوصف العنف باللاعقلانية مع أن المسوغات العقلية لا تعوزه" [8]

وعلم النفس الحديث أنكر وجود إرادة حرة لدى الإنسان، فالعمل الإجرامي لا يصدر عن وعي وتعقل؛ ولكن هذا لا يعني أن الضعف العقلي يؤدي إلى ارتكاب جرائم، فهناك العديد من الدراسات التي طُبقت على مجموعات من أفراد اتصفوا بأنماط سلوكية ما يمكن اعتبارها ضعفاً عقلياً، ومع ذلك لم يرتكب هؤلاء الأفراد جرائم خطيرة، ولكن حالات الضعف العقلي تتسم بنوع خاص من الانحرافات - بسبب نقص الإدراك، أو الوعي - كالتسول والتشرد أو الاستغلال في الدعارة وما إلى ذلك. وهناك نوعان من العنف مختلفان من حيث الآلية: العنف الفردي، والعنف الجماعي. ويمكن تقسيم العنف الفردي إلى قسمين أيضاً: قسم يقوم به أفراد بطريقة عرضية عن غير سابق تخطيط، أو عن غير قصد، فالجاني في حالة الدفاع عن النفس أو ثورة

---

[7] العنف والمقدس ص 18.

[8] العنف والمقدس ص 19.

obeikan.com

الغضب لم يكن قد خطط مسبقاً للنيل من الضحية. والقسم الآخر يقع ضمن خانة الجرائم المنظمة، والجريمة المنظمة هي أخطر بكثير من الجريمة العرضية.

وهناك دائماً علاقة سببية بين العنف والخوف، والعنف والغضب، أو العنف والإدمان. ولكن العدائية الفردية تبقى في مجال يمكن السيطرة عليها والحد من مخاطرها، فهناك رجال الأمن، والمحاكم والسجون، والوازع الديني أو الأخلاقي.

عكس العنف الجماعي الذي يصعب السيطرة عليه، وهذه المنظمات العالمية التي تعلن أنها تكافح من أجل السلام والاستقرار، إنما تكافح في معظم الأحيان من أجل مصالحها الخاصة، وكثيراً ما تتجاهل هذه المنظمات أعمال العنف التي تحصد الآلاف من البشر إذا كانت هذه المجازر تقع في مناطق محكوم عليها من قبل هذه المنظمات بالتهميش والاستبعاد، وكأن هناك مجموعات تستحق العيش الكريم والعدالة، بينما يستحق غيرها الإبادة والحرمان.

ومن الواضح أن السلوك الإجرامي هو عمل يشبه بالضبط الطبيعة الحيوانية الشرسة. والإجرام عمل يلزمه تخطيط وتربص للضحية. والإنسان المسالم نادراً ما يستطيع التخلص من الجاني لأنه لا يمتلك ردود فعل عدوانية، وهو لا يتوقع التعرض لاعتداء. فالمُسالم لا يعرف المكر، بينما الهجومي أو الجاني، يعرف كيف يدافع عن نفسه، وكيف ينال من الضحية - إلا إذا لم يحالفه الحظ في تنفيذ مخططاته. " ولا بد لنا من ذكر التمييز العام والواسع الذي يجري عادةً بين ما نسميه "بالعدائية العرضية" و"العدائية الصريحة أو المباشرة" وتُعرف العدائية العرضية بأنها العمل الذي يتسبب بإيذاء شخص آخر بشكل عرضي، حيث أن الأذية ليست الهدف الأساسي لمرتكب العمل؛ أما في العدائية

الصريحة (والتي تُعرف أحياناً بالعدائية الحاقدة) فيكون السلوك العدائي هدفاً بحد ذاته حيث يكون غرض المعتدي إنزال الأذى بالشخص الآخر. لكن حتى هذا التمييز ليس تمييزاً قاطعاً، كما يبدو للوهلة الأولى، فمن الصعب تقرير نوعية العمل العدائي بمجرد مراقبته، لهذا فإن النظر إلى الأعمال العدائية المتشابهة ظاهراً على أنها تختلف باختلاف الدوافع، يوفر لنا فهماً غنياً جداً للعدائية وهذا ما فعله عدد من المنظرين بتوغلهم في استكشاف أهداف العدائية." 9

تبرير العنف

كيف يمكن أن يكون للعنف مبررات!. ولكن في الواقع دائماً هناك مبررات، وهذه المبررات تتخذ لها عشرات الشعارات مثل: الحرية أو العدالة أو تقرير المصير، وغيرها من الألفاظ الأخاذة، لكسب تأييد الجماهير. وإذا كانت معظم العادات أو السلوكيات تتشكل عن طريق **التماهي** فهذا ما يجعل بعض التصرفات العنيفة غير محظورة في بعض المجتمعات. وكثيراً ما يتم تبرير الأعمال العنيفة باسم القيم والدفاع عن النفس أو الثأر وغيرها من المبررات، وهذا العنف المبرر قد يصبح مألوفاً لدى البعض وكأنه عادة، أو عنف مُشرع. وحيث لا يمكن للإنسان أن يكون مستقلاً عن العلاقات الاجتماعية، أو أن يحيا في عزلة، يكون مرغماً على التغاضي عن أفعال يكرهها.

"ورغم أن القتل لم يكن مسألة مستحبة للضمير البشري، إلا أن أشعار التضحية، وأغاني الفخر والحماسة غمرت تاريخنا كله منذ البدء وذلك الفيض الغنائي ربما لم يكن إلا غطاءً خارجياً للإحساس بالإثم والخطيئة من

9 العنف والمقدس، ص 118

تحطيم الآخرين أو سحقهم ، فتحولها الأغراض السياسية إلى مسألة مرغوبة ومطلوبة مستحبة، فوق إرادة ومشاعر الذين ينفذون إرادة العدوان فتبدوا في عمقها تبريراً ... وهناك ثلاث فرضيات (أو ثلاث عقد) جاء بها "غاستون بوتول" في كتابه السلم المسلح، العقدة الأولى "عقدة إبراهيم" وهي العقدة التي تعبر عن صراع الأجيال جيل الآباء وجيل الأبناء، الذي سيغتصب سلطانهم وأموالهم وكفاحهم الجيل الذي يليه. والعقدة الثانية: هي عقدة كبش الفداء ؛ حيث أن التنشئة في كل المجتمعات تشير إلى عدو تقليدي معين وقد يكون هذا العدو قبيلة أو قومية مجاورة تلعب دور العدو التقليدي والموروث، وهذا العدو يتحمل باستمرار كل الأزمات والمصاعب، ووجوده يشكل خطراً على المجتمع ليصبح التوتر أمراً يدعو للانفجار. ويقول بوتول المجتمعات إذاً كالأفراد تحس لا شعورياً بالحاجة لإيجاد المبررات، فتتراكم الاضطرابات والمعضلات وحالات القلق لتعبر عن نفسها بأشكال عدوانية تنتشر في أشكال شتى فمثلاً يعتبر كل منا سلاح الآخرين سلاحاً هجومياً، ولكنه يعتبر سلاحه الخاص سلاحاً دفاعياً. والعقدة الثالثة: عقدة ديموقليس وهي تُعبر عن الخوف الدائم وعدم الأمن... ويفترض بوتول بأن عقدة ديموقليس ذات شكلين، الأول هو الإحساس بضعف مصيرنا الذي يملي علينا الاستسلام والانقياد، والثاني هو التهديد الذي يثير الغضب والروح العدوانية فيحاول المرء المهدد بالخطر التفتيش عن المسؤولين عن تهديده. فالخوف هو سبب معظم الانفعالات العنيفة، وهو أيضاً سبب من أسباب الشجاعة النادرة أحياناً. وهناك شكل جديد من عقدة ديموقليس يسميه بوتول (عقدة الازدحام) وهي عقدة التهديد من تكاثر البشرية ومعاناة نصف سكان العالم من الجوع. وقد تذرع الألمان بضيق رقعتهم وارتكبوا أكبر المجازر في حق جيرانهم باسم المجال الحيوي. وهو ما تفعله

openkan.com

إسرائيل اليوم وهي تتذرع بضيق الرقعة فتهاجم جيرانها في عقر دورهم بحجة الحروب الوقائية والمجال الحيوي. ولهذا قامت بالعنف وتستمر به."[10]

ويضيف بوتول " بأن عقدة ديموقليس ليست فردية فقط وإنما هي أكثر فعالية عندما تنطبق على المجتمعات وعندئذ يغدوا عملها عدوانياً. ويلخص بوتول العقد الثلاثة قائلاً: " إنها تماماً كميولنا الفطرية الأخرى كائنة فينا كإطارات فارغة وتمتلئ بمضمون محدد وتتخذ اتجاهاً مشتركاً حسب نماذج الحضارات من جهة، وحسب الظروف والأحداث من جهة أخرى، ولكن عملها حاضر دائماً وخفي ومخادع ومتعدد الأشكال. وتفيد العقد الثلاث دوماً كأساس لإخضاع السكان للمحافظة على تبعيتهم وولائهم للدولة واحترامهم للتسلسل الإداري القائم، وتسمح بتحقيق الانسجام والتماسك اللذين ينطويان على الكثير من معاني التهديد بفعل عمل يتجه إلى عمق نفسية كل فرد، إن عقدة ديموقليس هي تنمية الإحساس بعدم الأمن والتهديد الماثل دائماً، وعقدة كبش الفداء هي التركيز على عدو محدد، داخلي أو خارجي ينتقل إليه إثمنا ونسقط عليه كل شياطيننا الداخلية، فكبش الفداء هو شرط الوعي الجيد في الروح العدوانية. وتمثل عقدة إبراهيم نزاع الأجيال والوعي الغامض بالبنية المتفجرة بصورة خاصة، أي وجود فائض من الشباب يتجاوز مطالب الاقتصاد ويخلق توتراً حاداً في المجتمعات من شأنه تنمية الروح العدائية الجماعية وهكذا يحدث في الغالب الانتقال من انعكاس غامض وشبه حيواني إلى وضع أعلى السياسات ورسمها".[11]

أما **بول ريكور** يحدد ثلاث عناصر للشر البشري هي: "التشويه" و"الخطيئة" و "الذنب" فهذه العناصر تنبعث عندما يعمل بعض المحرضين على الفتن بتشويه

[10] العنف والإنسان، ص 14- 16.

[11] المصدر نفسه، ص 17.

obeikan.com

صورة الآخر ولصق كل التهم به كي يوحي للرأي الجماعي بأن تعنيفه أو قتله له ما يبرره.

وحين يتم تبرير الأعمال العنيفة أو المتوحشة يصبح من السهل أمام القتلة ارتكاب الجرائم دون أي شعور بالذنب. وأحياناً يتم الاقتصاص من أشخاص لا علاقة لهم بالمشكلة ليصبحوا أهدافاً بديلة. " إن فهم العنف بأنه طبيعي وضروري من الناحية البيولوجية هو تفسير لرموز مشحونة عاطفياً مثل الحرب التي تؤمن في تقييمها المعرفي لسبب السلوك العنيف، بأن العنف فطري، قد تشرع السلطة الاجتماعية الحرب وتصادق عليها، وتعدها مقبولة عندما تُشن ضد معتقد يعبر عن سلوك عنيف متعذر ضبطه." [12] فالعدائية عمل مكبوت في اللاوعي الجماعي، وهذه العدائية متعددة المصادر؛ كالتعصب، واستغلال الدين، ونشر الإشاعات. وإذا كان هناك علاقة سببية بين الغضب الشديد والعنف، يمكن القول أن معظم أعمال العنف تترافق مع ثورات الغضب. وأكثر من ذلك فإن القلق وعدم الاستقرار تدفع بالناس إلى التنفيس عن الغضب بعدائية، وأحياناً تجاه أقرب المقربين.

هل يمكن القول بوحدة الضمير؟

معظم آراء علماء الاجتماع تؤكد أن الأخلاق تختلف بين الإنسان العامي والمثقف، وهناك علاقة أيضاً بين الأخلاق والعقاب أو المكافأة، أي معرفة الخير من الشر. فالضمير الأخلاقي يتشكل منذ الطفولة، وهو الذي يحدد صورة الأفعال الأخلاقية للفرد، ويحدد طبيعة الأفعال المنافية للفضيلة، أو التي يعاقب عليها الضمير.

---

[12] الأنماط الثقافية للعنف، ص 40.

ولكن كيف يمكن أن تتحدد الفضيلة، أو الأفعال المنافية للأخلاق؟.

بالطبع هناك الثقافة والوعي. ومعظم الناس يريد الخير، ولكن المفارقة هي في تحديد المفاهيم. وما يمكن اعتباره جريمة شنعاء في مكان ما، قد يكون بالنسبة للفاعل الجاهل من الأعمال البطولية التي يستحق عليها المكافأة. **أفلاطون** يقول أن الشرور موجودة في هذا العالم، فالخير يحتاج إلى نقيضه ليتم تحديده، والعالم الإلهي فقط هو عالم المُثل ولا مكان للشر فيه." ويرى **أفلاطون** أن الحكيم والجاهل كليهما يسعى إلى الخير ويستشرف إلى السعادة. لكن الحكيم هو من يعلم حقيقة الخير بينما الجاهل لا يعرف إلا الظواهر أو المظاهر، فيتصور أن الخير هو اللذة، مع أن اللذة هي المظهر الحسي فحسب، ولذا يُقبل على اللذة وينحرف عن سبيل الخير، والحكيم يعرف حقيقة الخير، فإن وجده في اللذة أخذ منها، وإن وجده في غيرها أخذ به، فمتى علم بالخير أحبه وسلك وفقاً له. وهكذا فإن الفضيلة في نظر **أفلاطون** هي العِلم بالخير، بينما الرذيلة هي الجهل."[13] وإذا أمعنا النظر بما يجري من حولنا من أحداث عنيفة وجرائم مروعة، سنؤكد نظرية أفلاطون؛ فمعظم الجرائم تُرتكب من قبل بعض المدمنين والغارقين في اللذات الحسية، أو بعض الجهلة الذين يتم استغلالهم لتحقيق مكاسب فردية أو استعمارية. ومن الملاحظ كيف يتم إغراق المجتمعات المراد لها أن تتداعى بكل وسائل الانحلال والفوضى، ويتم التغاضي عن الموبقات الفردية، بل وأكثر، يتم الترويج لكل أشكال التسيب والانحطاط الأخلاقي، وهذا التسيب يساهم في تغذية العنف ليتكاثر، وكلما ازداد عدد الأفراد الحاقدين والعنيفين والمدمنين، فرح بهذه الزيادة أصحاب الغايات الهادفة إلى تأجيج نار الفتن والحروب.

---

[13] الأخلاق النظرية، ص 157.

ولهذا يمكن القول أن الضمير الأخلاقي توحده بعض الصفات هي : العقل، والغريزة، والعاطفة، تماماً كأفعال الناس، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يحدد طبيعة أفعاله أو يحكم عليها إلا من خلال العقل. ومن ليس لديه الوعي العقلي الجيد لن يستطيع تحديد طبيعة أفعاله والتمييز بين ما هو صواب أو ما هو خطأ . ولا شك أن الضمير الأخلاقي يستمع لصوت العقل ويقوم من خلال العقل بإصدار أحكام على القيم والمبادئ. كما قال القديس توما الأكويني " إن الضمير هو الحكم الصادر من العقل".

ولكن إذا كانت المصادر متعددة، ستكون الأحكام مختلفة. ويمكن القول باختصار أن الضمير ينشأ من الالتزام بقيم المجتمع. وهذا يعني أن الحياة الاجتماعية تشكل الضمائر حسب الأحكام والقيم الموجودة والمتوارثة داخل المجتمعات. ولهذا تتفاوت معايير الضمائر بين الأفراد تفاوتا شديداً.

openkan.com